ملخص لرسالة

حصار إبراهيم باشا للدرعية وسقوطها عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م(*)

إعداد: فاطمة بنت حسين القحطاني
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تكمن أهمية موضوع هذه الدراسة في كون سقوط الدرعية حدًا فاصلاً في التاريخ السعودي ونهاية لدور مهم في تاريخ الدولة السعودية بسقوط عاصمتها الأولى الدرعية، وبالتالي انتهاء الدولة في دورها الأول. كما شكل هذا الحدث جانبًا مهمًا من جوانب علاقة الدولة السعودية بالدولة العثمانية؛ القوة العظمى في المنطقة في تلك الفترة، وقد بدأت تلك العلاقة من قيام الدولة السعودية الأولى وانتهت في عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م باسترجاعه للأحساء، ثم سقوط الدولة العثمانية بعد ذلك في الحرب العالمية الأولى.

(*) قدمت هذه الرسالة لاستكمال متطلبات الماجستير في قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض، في ١٠ شوال ١٤٢٧هـ/ ٢ نوفمبر ٢٠٠٦م.

وتعد الدرعية - محور هذه الدراسة - مركز ثقل الدولة السعودية الأولى السياسي والديني والاقتصادي، بوصفها المركز السياسي الذي حضن الدعوة السلفية التي قامت على أساسها الدولة السعودية ودافع عنها وعمل على نشرها، وقد أكسبها ذلك مكانة عظيمة في نفوس أتباع الدعوة، فتمركزت فيها أعداد كبيرة من السكان، مما جعلها تزدهر اقتصاديًا لتصبح من أكبر بلدان شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة.

ويعد حصار إبراهيم باشا للدرعية وسقوطها من أبرز الأحداث التاريخية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي؛ لأن هذا الحصار كان الوسيلة التي مكنت الدولة العثمانية من تحقيق هدفها في القضاء على الدولة السعودية الأولى، فكان خاتمة لسلسلة من الحملات التي شنتها الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف، ونموذجًا مميزًا للصراع بين قوتين كبيرتين في المنطقة نتج عنه سقوط الدرعية في النهاية.

ومما يثري هذه الدراسة توافر عدد كبير من الوثائق الخاصة بحملة إبراهيم باشا، تتضمن مراسلات وتقارير مختلفة لشخصيات متعددة كانت لها صلة مباشرة بهذا الحدث، وتناولت تفاصيل مهمة لم يستفد منها بما يتناسب مع أهميتها، وهذا الأمر يوجب دراسة هذا الموضوع بصورة شاملة وتفصيلية تتوافق مع أهميته، لتصغير دائرة البحث دون الخوض في العموميات.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مقارنة المصادر المتوافرة التي تحدثت عن أحداث حملة إبراهيم باشا وملابساتها،

وكانت هذه المصادر تنصب بشكل رئيس في ثلاث فئات هي المصادر المحلية، والمصادر العثمانية والمصرية المتمثلة في الوثائق العثمانية خصوصًا، والمصادر الأجنبية، وهي كما نرى تمثل وجهات نظر مختلفة لجميع أطراف النزاع، حرصت الدراسة على عرضها ومعالجتها للتوصل إلى النتائج المرجوة.

ولطبيعة الموضوع العسكرية قُسِّم إلى ثلاثة فصول رئيسة يسبقها التمهيد، بحيث يتناول الفصل الأول القوة المهاجمة المتمثلة في حملة إبراهيم باشا، والفصل الثاني القوة المدافعة والمتمثلة في قوات الدرعية وتحصيناتها، والفصل الثالث يتناول المواجهة العسكرية الرئيسة بين الطرفين وتتمثل في حصار إبراهيم باشا للدرعية، وتفصيل ذلك كالتالي:

التمهيد:

وقد تناول نشأة الدرعية وأهميتها في الدولة السعودية الأولى، بحيث تطرق إلى ظهور الدرعية على أنها كيان سياسي مستقل في نجد عام ٨٥٠هـ/ ١٤١٦م، عندما قدم مانع المريدي من شرق الجزيرة العربية إلى ابن عمه "ابن درع" صاحب حجر والجزعة، وقد أقطعه المليبيد وغصيبة؛ وهما موضعان معروفان على وادي حنيفة، وقام مانع بعمارتهما وبذلك نشأت الدرعية[١].

كما تناول التمهيد علاقة الدولة السعودية الأولى بالدولة العثمانية من خلال موقف الأخيرة من قيام الدولة السعودية،

(١) عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ط٤، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢٩٦-٢٩٧.

وتأزم العلاقات بينهما، وإرسال الدولة العثمانية لحملات عسكرية مختلفة من العراق ومصر للقضاء على الدولة السعودية وقد انتهت بحملة إبراهيم باشا موضوع الدراسة.

الفصل الأول: وهو بعنوان: "حملة إبراهيم باشا في طريقها إلى الدرعية"، وتناول الفصل أسباب إرسال حملة إبراهيم باشا وأهدافها المتمثلة في القضاء على الدولة السعودية الأولى(٢)، وقد تعددت دوافع محمد علي لإرسال هذه الحملة ما بين دوافع سياسية واقتصادية ودينية وعسكرية، تناولتها الدراسة بكثير من التفصيل من خلال الوثائق العثمانية الخاصة بمحمد علي باشا.

كما تناول هذا الفصل أهم الاستعدادات التي قام بها محمد علي لتجهيز الحملة، حيث قضى أكثر من ستة أشهر في الاستعداد لها(٣)؛ فعمل على الدعاية القوية للحملة وإبراز قوتها في محاولة لإرهاب السعوديين وإضعاف معنوياتهم(٤)، كما قام بالاتصال بالقبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية وعمل على استمالتهم إلى جانبه(٥)، وأعد ميزانية هائلة للحملة لتغطية نفقاتها وزودها بمخزون غذائي هائل وبكل

(٢) دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، وثيقة رقم ١/٢-٦١، بتاريخ ١٢٣٠هـ.

(٣) فيلكس مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية من كتاب تاريخ مصر في عهد محمد علي، ترجمة محمد خير البقاعي، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ٢٠٠٥م، ص١٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ص١٢١، ١٢٣، ضاري بن رشيد، نبذة تاريخية عن نجد، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ، ص٦٤.

ما تحتاج إليه من مستلزمات التخييم ونحوها[٦]. كما حرص على تزويدها ببعثة طبية مهمتها منع تفشي الأمراض بين الجنود وإسعاف المصابين والجرحى منهم، وذلك تجنبًا لما حدث في حملة طوسون باشا التي سبقت هذه الحملة في محاولة القضاء على الدرعية؛ حيث تفشت الأمراض بين أفراد الجيش[٧] مما كان له أثر كبير في إضعاف تلك الحملة.

كما زودت حملة إبراهيم باشا بأنواع مختلفة ومتقدمة من الأسلحة وآلات الحرب، ومن أهمها المدافع التي كانت على أحدث طراز وصل من أوروبا في تلك الفترة[٨]. وكذلك زودت بوسائل النقل لحمل مهمات هذه الحملة من مؤن وأسلحة وذخائر[٩]، وقد جمع محمد علي لهذه الحملة أعدادًا كبيرة من القوات العسكرية، وحرص على تدريبهم وإعدادهم لتحمل معارك الصحراء[١٠].

(٦) عبدالرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت: دار الجيل، (د.ت)، ج٣، ص٥٢٥، ٥٤٧.

(٧) مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١٢٩.

(٨) دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، وثيقة رقم ١/٥-١٢٧، بتاريخ ١٢٣٢هـ.

(٩) إدوارد جوان، مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة محمد مسعود، القاهرة: ط١، ١٩٣١م، ص٥١٠.

(١٠) فرستر سادلير، رحلة عبر الجزيرة العربية من القطيف في الخليج العربي إلى ينبع على البحر الأحمر خلال عام ١٨١٩م، ترجمة أنس الرفاعي، تحقيق سعود العجمي، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٣هـ، مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١٠٦.

وقد أعطت الوثائق العثمانية وصفًا تفصيليًا للجيش الذي جهزه محمد علي لهذه الحملة؛ فقد كان أغلب فرسانه من بدو الصحراء[١١] وعناصر أخرى من رعايا الدولة العثمانية من الألبان والمغاربة والشركس وغيرهم[١٢]. إضافة إلى فئة خاصة وإن كانت قليلة جدًا من الأوروبيين الذين صحبوا الحملة بوصفهم مستشارين وفنيين حربيين، ومنهم الضابط الفرنسي فيسيير الذي عمل على مساعدة إبراهيم باشا في التخطيط للمعارك.

الفصل الثاني: وهو بعنوان "تحصينات الدرعية"، وقد تناول عدة مباحث مهمة تندرج تحت موضوع التحصينات؛ أهمها:

- إجراءات الدفاع الأولية عن الدرعية، وقد بدأت منذ وقت مبكر، سعى فيها الإمام عبدالله بن سعود إلى اتخاذ إجراءات مهمة؛ منها تغيير قيادات بعض البلدان التي كان يشك في إخلاصها[١٣]، وجمع شيوخ البدو ليأخذ منهم عهدًا بالإخلاص والمساعدة ووضع المخلصين منهم في الأماكن الواقعة على الطرق المهمة إلى الدرعية[١٤]، كما عمل على دفع بعض زعماء الحجاز وعسير - اللتين كانتا

(١١) دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، وثيقة رقم ٥/١-٤٧، ووثيقة رقم ٥/١-١٩٠، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢٣١هـ.

(١٢) سادلير، رحلة عبر الجزيرة، ص١٤٠.

(١٣) ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٨٢، مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١١١، ١١٨.

(١٤) مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١٢٢.

في هذا الوقت تحت الحكم العثماني المصري - إلى المقاومة؛ لفتح جبهات متعددة على محمد علي باشا وتشتيت قواه ما بين الحجاز وعسير ونجد(١٥)، والقيام بحملة إعلامية واسعة للحث على الدفاع عن البلاد عن طريق أئمة المساجد وانتشار القصائد الحماسية(١٦) وما إلى ذلك من إجراءات.

- تسليح الدرعية، وذلك بتوفير جميع الأسلحة والمعدات القتالية والذخائر وتوزيعها وتخزينها وصناعتها.
- تموين الدرعية بكل ما يلزم من الأرزاق والأغذية المختلفة والأعلاف للماشية وإنشاء مستودعات ضخمة لحفظها(١٧).
- قوات الدفاع وإعداد الجيش اللازم سواء من المدافعين من أهل الدرعية أو من خارجها(١٨).
- ما أسهم به أمراء آل سعود في الدفاع عنها، وكذلك موقف علماء الدعوة في المقاومة(١٩).

ومن المباحث المهمة التي تناولها هذا الفصل دراسة الموقع الجغرافي للدرعية وأثره في المواجهة العسكرية، وتأثير تضاريس المنطقة في الدفاع عنها، فقد كانت سفوح وادي

(١٥) الأرشيف العثماني في إستانبول، وثيقة رقم H.H.36070-E، بتاريخ ١٢٣٢هـ.

(١٦) مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١١٩.

(١٧) المصدر نفسه، ص١٠٤، ١١٨.

(١٨) ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٩٨-٤١٤.

(١٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٧-٤١٨.

حنيفة - المخترق لأراضي الدرعية - شديدة الانحدار في هذه المنطقة؛ فشكلت بوعورتها وارتفاعها حصنًا منيعًا لقصور الدرعية مما أعطاها حصانة طبيعية. ولكن على الرغم من إيجابيات موقع الدرعية وطبيعة أرضها فإن هناك سلبيات تعد نقاط ضعف في تحصيناتها؛ فكثرة روافد الوادي في الدرعية تعد من أهم هذه السلبيات؛ لأنها قد تمكن العدو من التسلل عن طريقها، ومما يوضح ذلك ما ذكره الشيخ عبدالرحمن بن حسن في المقامات عندما تحدث عن الدرعية بأنها "شعاب لا يمكن تحصينها بالأبواب والبناء"[٢٠] لذلك كان لابد من الحرص على حراسة هذه الممرات والروافد، وبالفعل فقد استدرك الإمام عبدالله هذا الأمر، وقد اتضح ذلك من طريقته في توزيع قوات الدفاع حول الدرعية.

كما تناول هذا الفصل مبحثًا خاصًا بالمنشآت الدفاعية في الدرعية وتاريخ بناء هذه المنشآت، ودراسة تفصيلية لأسوار الدرعية وأهم أبراجها وقصورها وقلاعها.

وختام هذا الفصل كان مبحثًا عن الاستعدادات الأخيرة لمواجهة الحصار، ووصفًا تفصيليًا لتوزيع القوات وقياداتها حول أسوار الدرعية، ويلحظ على هذا التوزيع أن غالب القيادات كانت من آل سعود أو بعضًا من أشد المخلصين للدولة، كما كانت الفرق المدافعة من البلدان الأخرى تضم

(٢٠) عبدالرحمن بن حسن، المقامات، تحقيق عبدالله المطوع، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ، ص٩١.

أعدادًا من أهل الدرعية؛ وذلك لأنهم أعلم ببلدتهم وطرقها، كما نجد أن أغلب القوات تركزت في نقاط الدفاع الشمالية والشمالية الغربية لتوقع هجوم إبراهيم باشا من جهة الشمال[٢١].

الفصل الثالث: وهو بعنوان "معارك الدرعية وسقوطها"، وقد تناول ضرب إبراهيم باشا الحصار حول الدرعية بعد أن رأى حجم الاستعدادات والتحصينات التي أقامها الإمام عبدالله للدفاع عنها. فقد وجد أن القيام بعملية اقتحام مباشر للبلدة لن يحقق الفائدة المرجوة، لذلك فضل اتخاذ أسلوب المحاصرة والتضييق لإضعافها حتى يتمكن من إسقاطها، وهذا ما أوضحه إبراهيم باشا بنفسه في إحدى رسائله إلى والده[٢٢].

وقد تركزت خططه في ضرب الحصار في محورين أساسيين، أحدهما إقامة المنشآت العسكرية اللازمة لضرب الحصار، حيث عمل على إنشاء منظومة من المنشآت الهندسية والحواجز الخاصة لضرب الحصار من متاريس وخنادق ومرابض لنصب المدافع ومعاقل خاصة لمراكز القيادة ومستودعات للذخيرة والمعدات[٢٣].

---

(٢١) ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٩٧-٣٩٩.

(٢٢) دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، وثيقة رقم ٢/١-٢٧، بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٣٣هـ.

(٢٣) دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية، وثيقة رقم ٥/١-٢٠٨، بتاريخ ٣ رجب ١٢٣٣هـ.

أما المحور الثاني فارتكز على توزيع القوات، حيث عمد إبراهيم باشا إلى اتخاذ إستراتيجية مختلفة في الحصار نتيجة لطبيعة أراضي الدرعية وكونها بلدة متسعة ومستطيلة الشكل يخترقها وادي حنيفة من الوسط، وبها شعاب وممرات على طول جانبيها؛ لذلك اتخذ طريقه عبر الوادي بحيث يستولي على أحياء الدرعية القائمة على جانبيه الواحد تلو الآخر. وبناء على ذلك عمل على تقسيم قواته إلى ثلاثة أقسام رئيسة؛ قوة مركزية بقيادته تتقدم في بطن الوادي، وجناحين على جانبي الوادي لضرب تحصينات الدفاع، فنشر قواته أرتالاً متفرقة مقابل قوات الدرعية المتمركزة في النقاط الدفاعية داخل أسوار الدرعية وخارجها[٢٤]، وبعد ذلك بدأت المعارك العسكرية بين الطرفين.

استمر حصار الدرعية ستة أشهر وخمسة أيام حدث فيها العديد من المعارك، وقد مر هذا الحصار بعدة مراحل، وقد تم تقسيمه إلى أربع مراحل رئيسة؛ وذلك نظرًا للمتغيرات أو النتائج التي حققتها كل مرحلة باعتبارها نقطة فاصلة في أحداث الحصار.

وقد تطرق هذا الفصل أيضًا إلى عدة موضوعات مهمة ارتبطت بأحداث الحصار، منها أوضاع أهالي الدرعية أثناء الحصار، ودور ولاة الدولة العثمانية في بغداد والشام والحجاز في حصار الدرعية ومواقف حاضرة نجد وباديتها

(٢٤) ابن بشر، عنوان المجد، ج١، ص٣٩٧-٣٩٨، مانجان، تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص١٦٢-١٦٣.

من هذا الحصار، وكذلك موقف القوى المجاورة لنجد في عمان واليمن والكويت، إضافة إلى موقف القوى العالمية من الحصار وسقوط الدرعية.

كما عالج هذا الفصل عوامل سقوط الدرعية وانهيار الدولة السعودية، موضحًا أن هناك عوامل مباشرة حصلت أثناء حملة إبراهيم باشا وحصاره للدرعية، وعوامل أخرى غير مباشرة كانت مقدمات لتحلل الدولة وسقوطها اتضحت منذ فترة مبكرة من بداية الحملات المصرية عليها، خاصة أن هذه الدولة كانت منذ بداية نشأتها وحتى سقوطها في حالة حرب مع أعدائها، فقد كانت أطراف الدولة تشكل دائمًا مصدرًا للاضطراب وتهديدًا للدولة، وحتى وقت وصول الحملات المصرية لم تكن الدولة السعودية قادرة على ضبط حدودها وضبط علاقاتها بالقوى المجاورة لها، مما أدى إلى تكالب هذه القوى عليها في النهاية، كما أن الدولة السعودية لم تكن على علاقات جيدة مع القوى المجاورة؛ فلم تجد حليفًا يساندها ضد هذا الاعتداء، واضطرت أن تواجه بمفردها قوى مختلفة متحدة على هدف واحد وهو القضاء عليها.

أما العوامل المباشرة فانصبت في عدة محاور سياسية وعسكرية واقتصادية ونفسية، وهي إجمالاً كالتالي:

- عدم تكافؤ القوة العسكرية بين الطرفين.
- عدم استغلال السعوديين للفرص المتاحة لمواجهة الحملة.
- الأخطاء الحربية التي ارتكبتها القيادة السعودية.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الرابع شوال ١٤٢٩هـ، السنة الرابعة والثلاثون
الدارة

- طول مدة الحصار مما أنهك السعوديين الذين كانوا منقطعين عن العالم الخارجي، في حين كانت القوات العثمانية المصرية تتلقى المساعدات والإمدادات باستمرار، فتزداد قوة مقابل ضعف القوات السعودية المحاصرة.
- ظهور الخيانة.
- عوامل نفسية نتيجة لتوالي الهزائم على القوات السعودية.

كما تطرق هذا الفصل إلى نتائج سقوط الدرعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، تطرقًا موجزًا وسريعًا؛ لأن هذا الموضوع يحتاج إلى تفاصيل كبيرة ومهمة قد تشكل هي بمفردها بحثًا آخر.